

التعدد اللغوي

كثيرا ما تطرح قضايا الازدواج والتعدد اللغوي في المجتمعات مشاكل جوهرية ذات صلة وثيقة بالهوية والحضارة والثقافة أو بالأحرى تقدّم الشعوب و رقيها، لأن السيادة اللغوية من سيادة الأمة.

غير أننا نلاحظ تداخلا كبيرا في ضبط مفهوم التعدد اللغوي بين علماء اللغة وعلماء الاجتماع أو الأنثروبولوجيا، مما نجم عنه تكريس فكرة الصراع الخفي - صراع أيديولوجي - ضمن المباحث اللغوية .

قد يبدو لنا بساطة مفهوم التعدد اللغوي وعدم التباسه ومصطلحات أخرى ، فنقول " إنه حالة مركبة من الاستعمال اللغوي يتجاوز الثنائية اللغوية - إذا اعتبرنا هذه الأخيرة استعمال لغتين في مجتمع واحد- أي مقدرة الفرد على استعمال أكثر من لغتين للتعبير عن مقاصده في شتى وجوه تواصله" .

كما يأخذ المفهوم بعدا اجتماعيا في بعض البلاد من خلال تبني الدولة بصورة رسمية وواعية لأكثر من لغتين ، كما هو الحال في بلجيكا التي تعتمد ثلاث لغات رسمية :

- الهولندية التي يتحدث بها 59 % من السكان.
- الفرنسية التي يتحدث بها 40 % من السكان .
- الألمانية التي يتحدث بها أقل من 1 %

وهي (بلجيكا) مقسمة إلى ثلاث وحدات لغوية وثلاثة أقاليم إدارية :

- الوحدة الفلامندية (الناطقة بالهولندية)
- الوحدة الفرنسية (الناطقة بالفرنسي)
- الوحدة الجرمانية (الناطقة بالألمانية)

وكذلك سويسرا التي تعتمد أربع لغات ، وهي :

- الألمانية
- الفرنسية
- الإيطالية
- الرومانتش

وتعد اللغات الثلاثة الأولى لغات متساوية المكانة على المستوى الوطني داخل الإدارة الاتحادية للكونفدرالية السويسرية.

إلا أن المنتبع الدراسات التي عالجت قضايا التعدد اللغوي بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، يجد مجموعة من المصطلحات المعبر بها عن المفهوم نفسه ، أو مفاهيم عدة معبر عنها بمصطلح واحد . ومن تلك المصطلحات : التعدد اللغوي ، التعددية اللغوية، التنوع اللغوي ، نوعية من اللغة، التغيير اللغوي ، التباين اللساني ، الثنائية اللغوية أو الازدواجية اللغوية ، التداخل اللغوي.

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس تعدد يتعدد أي صار ذا عدد ، أو صار عديدا ، أي كثيرا ، والعد إحصاء الشيء ، تقول عدت الشيء أعده عدا فأنا عادّ ، والشيء معدود ، والعديد الكثرة، ويقال ما أكثر عديد فلان وعددهم ، وإنهم ليتعادون ويتعددون على عشرة، أي يزيدون عليها.

وعليه يشير المصطلح إلى مفهوم التعدد والزيادة في الشيء ، كما أن تلك الزيادة غير محددة ، بل تحمل معنى الكثرة والاتساع.

من المصطلحات الأجنبية المقابلة لمصطلح التعدد اللغوي أو التعددية اللغوية : plurilinguisme و multilinguisme ، وما يشير إلى التعدد أو الكثرة هو السابقتان : pluri من plural، و multi ، فهما تدلان على أكثر من اثنين . كما أن اللاحقة isme ، هي ما يدل على المذهب. ولذلك يقابل المصطلحان الأجنبيان في اللغة العربية بـ: تعدد اللغات أو التعددية اللغوية ، أو مذهب التعددية اللغوية.

ولعلّ السبب الذي جعلنا نعتبر السابقتين pluri من plural، و multi تدلان على أكثر من اثنين - على الرغم من قول بعضهم التعدد بدءا من اثنين- هو أنه حينما نذهب إلى مصطلحات أخرى في علم الاجتماع اللغوي ، من ذلك : الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية : diglossie ، bilingualisme ، فإن di و bi تدلان على العدد اثنين ، ومن دون شك فإن دلالة di و bi تختلف عنها في pluri من plural، و multi .

ومن خلال التعريفات اللغوية يمكن أن نذكر بعض التعريفات الاصطلاحية التي لم تتعد عن التصور اللغوي لمصطلح التعدد اللغوي.

فالتعدد اللغوي هو استعمال أكثر من لغة واحدة ، وهذا الاستعمال قد يكون دستوريا او بيداغوجيا ، كما قد يكون على مستوى الأفراد او الجماعات.

وإذا كان التعريف السابق ، يأخذ في الحسبة العدد اثنين ، فإن الباحثين (محمد التونجي وراجي الأسمر) يشيران في معجمهما (المفصل في علوم اللغة) إلى العدد ثلاثة ، فالشخص متعدد اللغات ، هو :

*الشخص الذي يتكلم أكثر من لغتين.

*صفة لمجتمع فيه أكثر من لغتين مستعملتين.

*صفة لكتاب يتضمن نصوصا بأكثر من لغتين.

ففي هذا التعريف إشارة إلى اللغة المنطوقة وكذا المكتوبة في صورة صريحة ، من خلال ذكر النصوص التي يتضمنها الكتاب.

وإذا انتقلنا إلى مصطلح التعددية اللغوية ، فإن هناك من يأخذ مفهوم التعددية على اختلاف أشكالها لتبرير مشروعية التعدد ، باعتباره حق جميع القوى والآراء المختلفة في التعايش والتعبير عن نفسها ، وفي المشاركة على صعيد تسيير الحياة في مجتمعاتها.

ولذلك فإن مصطلح التعددية اللغوية يشترك في التصور السابق مع مصطلحات تتقاطع والحقل الدلالي ، منها : التعددية الحزبية ، التعددية السياسية، التعددية ، الاجتماعية ، والتعددية الدينية. وعليه تصير التعددية اللغوية هي حق الجماعات اللغوية في ممارسة لغتها واستعمالها في المحالات الرسمية وغير الرسمية.

في حين يتجنب فريق آخر استعمال مصطلح التعددية اللغوية لما تحمله لفظة التعددية من إشارات إلى الحزبية والصراع والتعصب.

وتساوي جوليبيت غرمادي بين مصطلحي تعددية لغوية وثنائية لغوية ، حيث ترى أن الثنائية اللغوية أو التعددية اللغوية تكون في استعمال منظومتين أو أكثر من جانب المتكلمين في متحد واحد.

ويستعمل رتشارد هدسون (لغوي بريطاني) مصطلح نوعية من اللغة ، وهو يعني مجموعة وحدات لغوية لها التوزيع الاجتماعي نفسه، بمعنى أننا نتعامل مع جميع اللغات التي يستخدمها فرد من متعددي اللغات باعتبارها نوعية واحدة.

وعليه يعبر مصطلح نوعية من اللغة على لغات عديدة أثناء الاستعمال من طرف الفرد أو المجتمع وكذلك فيه إشارة إلى العلاقة الرابطة بين تلك اللغات على اختلاف أصولها ومرتبته .

ويستعمل العالم اللغوي الألماني هارالد هارمان (1946) ، مصطلح التنوع اللغوي، مشيراً إلى ان هذا الأخير يعد ضرورة في المجتمعات من أجل مواجهة متطلبات الثقافة المحلية والمحافظة على السلوك الاجتماعي ، إذ إن تعدد اللغات في العالم ليس واقعا يجب العيش معه وحسب، بل إنه أيضا أداة للهوية الإنسانية. إلى أن يقول : إن خسارة تنوع اللغات في العالم يعادل ما قد يحدث من تقليل لقدرة الإنسان على إقامة جماعة ذات صبغة محلية.

ويذهب برنار صبولسكي (1932-2022) في كتابه علم الاجتماع اللغوي إلى أن ما يدل على التنوع اللغوي هو وجود ظاهرة الازدواجية اللغوية والتعددية ، حيث يقول : " تعد الازدواجية اللغوية والتعددية سواء كانت خاصة بشخص بعينه أو جماعة اجتماعية معينة من أهم المظاهر اللغوية الشاهدة على التنوع اللغوي الجدير بالملاحظة والاهتمام ."

وعليه فإن الاستعمالات اللغوية القائمة بين لغتين أو أكثر او بين لغة ولهجة أو لهجات يعد شاهدا على ظاهرة التنوع اللغوي ، ومنه يمكن أن نستنتج حسب رأي صبولسكي أن التنوع اللغوي أشمل وأوسع من الازدواج اللغوي والتعددية.

ومن الدارسين العرب الذين أشاروا إلى ظاهرة التعدد اللغوي كمال بشر في كتابه " علم اللغة الاجتماعي " ، حيث يستعمل مصطلح التنوع اللغوي ويرى أنه أحد أشكال التغيير اللغوي الذي لا مناص منه بالنسبة للغات البشرية . وهو ما يحدث للغات أثناء انقسامها وتشعبها وتفرعها .

كما يجعل كمال بشر التنوع اللغوي خاصا بلغة واحدة أثناء انقسامها، وعليه يكون التنوع اللغوي عنده هو تفرع اللغة الواحدة وانقسامها إلى لهجات مختلفة.

ويستند كمال بشر في ذلك التصور إلى ما حدث في تاريخ بعض اللغات من انقسام ، من ذلك ما حدث للاتينية التي تفرعت إلى لهجات ، ثم تطورت تلك اللهجات وصارت لغات ، وهي : الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية. وكذلك ما هو موجود في السامية في تفرعها إلى العربية والعبرية والسريانية ، ويضيف تفرع العربية إلى السودانية والمصرية والعراقية واللبنانية.

إن هذا التصور تعوزه الدقة ، ذلك أن ما حدث في اللاتينية ليس شبيها بما حدث في العربية ، باعتبار خصوصية اللسان العربي ، كما ان العربية هي لغة احتواء لا إقصاء ، وما كان فيها من لهجات قديما أو حديثا لا يخرج عن اللغة الواحدة الجامعة لها وهي العربية الفصيحة.

وبحديثنا عن التنوع والتعدد اللغوي وفكرة التغيير ، نجد هذه الفكرة عند الدارسين ميلوري جيمس و ميلوري ليسلي ، حيث تحدثنا عن التغيير اللغوي مشيران إلى ما يحدث على مستوى البنية ومستوى الاستعمال . فما يكون على مستوى البنية يمكن ان نعتبره تغيرا ، وما يكون على مستوى الاستعمال يمكن ان نعتبره تعددا . وعليه يصير كل تنوع واختلاف في البنية تنوعا لغويا ، وكل اختلاف وتنوع في الاستعمال تعددا لغويا .

ونصادف فكرة شبيهة بما سبق عند حولييت غرمادي ، حيث استعملت مصطلح التباين اللساني أو التلون اللساني . فهي ترى أن التباين في اللغة يمكن أن يتجلى في استعمالات وفي بنى منظومة واحدة ، كذلك من الممكن ان يتميز هذا النشاط بالتباين في الألسن ، ذلك التباين القائم بين المنظومات عينها .

وعليه يجمع مصطلح التباين بين فكري البنية والاستعمال ، في حين كان في نظر العالمين ميلوري جيمس و ميلوري ليسلي يعبر عن التغيير في البنية في اطار التنوع ، والتغيير في الاستعمال في إطار التعدد .

ومن المصطلحات المعبرة عن التمازج بين اللغات أو بين اللهجات ، نجد مصطلح التداخل اللغوي ، إلا أن هذا الأخير يختلف عن مصطلح التعدد اللغوي ، ذلك أن التداخل اللغوي هو " استعمال فرد متكلم مزدوج اللغة في اللغة المعبر عنها خاصية صوتية ، صرفية ، معجمية أو تركيبية من اللغة المصدر (المعبر بها) ، وهو يختلف عن النقل او الاقتراض في كونه فرديا وغير إرادي ولا واع خلافهما ."

من خلال ما سبق ، يمكن ان نستنتج أن مصطلح التعدد اللغوي عبر عنه بمصطلحات كثيرة ، منها ما كان مطابقا في المفهوم ، ومنها ما كان مغايرا . من ذلك : التعددية اللغوية ، التنوع اللغوي ، التغيير اللغوي ، نوعية من اللغة ، التباين اللغوي ، التباين اللساني ، الازدواجية اللغوية ، الثنائية اللغوية .

وعلى الرغم من وجود مصطلحات عديدة ، إلا أن المقابلات الأجنبية تمحورت في ثلاثة ، وهي : plurilinguisme و multilinguisme على شيوعهما ، و variation linguistique على قلة استعماله .

كما يمكن أن نلاحظ أن مصطلح التباين - حسب ما سبق - اوسع وأشمل باعتباره يعبر عن الظواهر اللغوية المختلفة من ازدواجية او ثنائية او تعدد لغوي سواء على مستوى الاستعمال أو البنية .